



صحيح أن الثورة لم تصلح كل عيوبنا، إلا أنها أظهرت أجمل ما لدينا”， كتب هذا الشاعر الرومنسي في السنة الأولى من الثورة السورية، واتخذه البعض أيقونة، ولم يكن أحدها يدرى إلى أين نحن ذاهبون، ولم نتوقع حينها أن المنحنى البياني المتتصاعد لأخلاقنا سيتوقف عند ذروته يوما، وأنه سيترنح بعدها ويميل نحو الأسفل، ثم يهوي سريعا كانهيار مدننا المصنوعة من الملح.

أمضيت عاما كاملا قبل اندلاع الثورات في اعتزال الناس والتأمل، وشرعت في تدوين رواية وكتاب، فتضخما ليسودا مئات الصفحات، وما زالا في الطور الجنيني. رواية تحكي ضياع الشباب في عالم زائف، وكتاب يبحث حرفيًا في "جنون العالم". وعندهما انقدحت شرارة الثورات طويت الصحف وكسرت الأقلام، وعقدت الأمل على هاتاف الشارع ورصاصة البنديقة.

أظهرت المؤسسة أجمل ما لدينا بالفعل، وكشفت زيف فقهاء السلطان وخواه "الدعاة الجدد" ونفاق مثقفي القومية.

كُسرت الأصنام وسقطت المرجعيات الكاذبة وأعيد ترتيب الأولويات، وتضخم فينا نحن الشباب جنون العظمة. ثم ماذا؟

بلغت الدماء الركب، واحتلّت السلاح، ولفظت السجون حثالة المجتمع إلى الشوارع، وفتحت حدود البلاد أمام شذاذ الآفاق، وأغتيل بعض قادة الجهاد المخلصين، وسقط مرتدو الفنادق بالبزات السوداء، وكشر "المجتمع الدولي" عن أننيابه، وتخاذل الأشقاء العرب، ورخصت الذم في سوق الحاجة، وغاب الراعي فنشبت الذئاب أننيابها في ظهور الرعية.

ظهرت داعش في المسافات الفاصلة بين طرفي الصراع، وأطاحت بكل الشعارات في تطبيق استعراضي لأكثر أفلام الرعب وحشية. فانهار منحنى الأخلاق نحو الهاوية، وأظهرت الثورة أخيراً أسوأ ما لدينا!

#### إسقاط هيبة الدين:

كان ثمة أمل في الدعاة وطلبة العلم، وكانت ثمة جهود قاصرة للترقيع وسد الثغرات. لكن انهيار صورة فقهاء السلطان أخذ معه كل شيء، والمنظومة العلمية لدى سلك المشيخة - الذي لم يكن النظام ليسمح لغيره بالبقاء - لم تجد في جعبتها الكثير لتقدمه، وتلألأ لحرى الخوارج بالدماء والجهل قلب الطاولة على العلم الشرعي كله، بل على الدين نفسه في أذهان جيل كان قد أضاع البوصلة أصلاً في ظل تربية العسكر العلماني وحكم الأقليات، قبل أن تجرفه ريح العولمة.

كان العلماء والدعاة على مر التاريخ نخبة الأمة وملاذها، فصاروا اليوم - ونحن في قلب المحنـة - رمزاً للخيانة. كان سمعتهم رمزاً للإنصراف عما في أيدي الناس، فأصبح اليوم - شاعوا أم أبوا - شعاراً للإقبال على الدنيا، وهناك من يغذي هذه الصورة النمطية كل يوم.

ودخل أنصاف المشايخ على الخط، وقد كان بعضهم في مطلع الثورات متربعاً متخفياً على مصالحه، ثم وجد في الثورات طريقاً أسرع للشهرة والمناصب.

وببدأ سباق البحث عن لقب "شيخ الثورة" و"شرعـي" اللواء أو الجبهة، وصار معيار المشيخة في إعلان طالب العلم موقفه من الثورة "المجلة" أو من الجهاد، وبالتالي من مشايخه الصامدين، حتى إن كانوا في آخر أيام شيخوختهم وكان موقفهم السياسي لن يغير من عزيمة الثوار ولا من ظلم الطاغية.

أما معيار المفاضلة في التأهل لمناصب القضاء الشرعي بالمحاكم الثورية فهو مدة المحكومية في سجون النظام ما قبل الثورة، وثمة أفضلية لمن تخرج من سجن صيدنايا العتيـد، فهو في عُرف "أخوة المنهج" من أعظم "جامعات" العلم الشرعي!

وبطبيعة الحال، دخل مثقفو الحادثة أيضاً على الخط، وأخرجوا ما في جعبتهم من الحقد على "المؤسسة الدينية" كما فعل أسيادهم إبان الثورة الفرنسية في "رجال الدين". وبعد أن كان الطعن في "مؤسسة" فقهاء السلطان، اتسع ليشمل طبقة العلماء المتسلسلة منذ أكثر من ألف عام، فباتت في أدبياتهم حلقةً متصلة من "المتأمرين" على الوحي للانحطاط بالأمة إلى ما صارت إليه.

وبعد أن كان تجديد الدين على رأس كل قرن هو تخليصه من الشوائب المستورـدة؛ بات في قرن الثورة نقضاً للتراث كله واستيراداً جاهزاً للبديل من مصانع ما بعد الحادثة.

وهكذا انصرفت الأبصار عن اليهود والماسون والاستعمار والرأسمالية والشيوعية والقومية، وصارت المؤامرة في قلب كتب تراثنا، وفي ما تركه الكبار من ذخائر التفسير والفقـه وعلم الحديث واللغة.

لم يعد العدو موضوعاً بل أصبح فكرة، ثم أصبح ذاتاً تجلـد وتـ TAS بتلـ زـ "مازوشي" مريض، وأصبح الشاب المنفتح مفتواً حاوياً كأعجاز نخل منقرـ، وغاية نشوته في التشـ فيـ منـ ذـ اـهـ التيـ أـعـيـاـهاـ الفـ شـلـ.

بلغ هوان الشاب على نفسه ألا يرى لنفسه قيمة في عين العالم، والعالم عنده هو الغرب ولا أحد سواه.

حتـ لم تعد هناك مؤامرة تحـاكـ ولا عـدوـ يـكتـرـثـ فيـ منـظـورـ مـدرـسـةـ الانـفـتـاحـ.ـ أـولـيسـ "ـالـعـيـبـ كـلـهـ فـيـنـاـ"؟ـ فـمـنـذـ الـذـيـ يـهـمـ لـأـمـرـنـاـ ليـتـآمـرـ عـلـيـنـاـ؟

أصبح معيار الحق والباطل في مدرسة "أصول الفقه الفيسبوكية" هو موقع إقامة العالم أو طالب العلم، فإن كان يقيم تحت وابل الرصاص فكل ما يقوله "حق يُسمع" ولو كان مجرد دعىً أميًّا، أما إن كان جالساً في غرفة مكيفة آمنة فكل ما يقوله "هراء"، حتى لو فتح الله له فأبدع من العلم ما يbez فتاوى أبي حنيفة والشافعي وابن تيمية.

أصبح قيام العالم وطالب العلم بحده الأدنى من واجبه الشرعي "تنظيراً"، وسواء كان تبليغه حكم الله للناس اجتهاداً صائباً أم خطأ فالأمر في عُرف التأثرين سيان، فإما أن يوافق الحكم الشرعي هوامه فيُقبل؛ أو يُبُصق على لحية صاحبه مهما بلغ طولها وبياضها، وما أسهل الإتيان بالرد والنقض من سوق التجديد المنفتح.

أصبح العلم الشرعي بكل عظمته في ميزان الجيل ورقةٌ صفراءٌ تقطع من كتب تراث "الانحطاط"، وأصبح التراث المحفوظ منذ أكثر من ألف عام كلاً مباحاً. فصار لكل طالب في كلية تقنية الحق في أن يختار ويرجح ويقابل ويعارض، وأن يقول "رأيي هو كذا" وهو لا يجيد كتابته بلغة سليمة. ولم يعد الأمر في أن يستفتني الفتى قبله في الاختيار بين فتاوى أهل الذكر، بل في أن يُعمل هوامه في ما لم يقله أحد سواه، وأن يضرب بالعلم حائطاً اسمه "لا يحق لمن لا يجاهد أن يفتى"، وهو قد جمع إلى قعوده عن jihad جهلاً مركباً.

يقول الشيخ سلمان العودة في مذكراته، إن أحد زملاء الصبا من طلبة العلم جادل شيخه الدكتور محمد عبد الوهاب البحيري في حلقة علم قائلاً "عندك أن الأمر كذا"، فقال له الشيخ "يا ابني إنت ما لكش عند!".

**يقولون هذا عندنا غير جائز، ومن أنت حتى يكون لكم عند؟**

أما الروائي الإيطالي أمبرتو إيكو فصرّح مؤخراً بأن موقع التواصل الاجتماعي "تمنح حق الكلام لفيالق من الحمقى، ممن كانوا يتكلمون في البارات فقط بعد تناول كأس من النبيذ، دون أن يتسببوا بأي ضرر للمجتمع، وكان يتم إسكاتهم فوراً، أما الآن فلهم الحق بالكلام مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل؛ إنه غزو البلهاء". ولعل إيكو، الذي يعد ثاني مشاهير العالم تأثيراً في توبيخ، والذي كتب سابقاً رواية "بندول فوكو" وسخر فيها من كل من يتهم الحركات السرية بالمؤامرة، لعله يعلم أن موضع التواصل كلها في يد اليهود!

وسواء علم إيكو أم لم يعلم، فما قاله عن الحمقى في بارات الغرب لا يختلف كثيراً عن الحمقى في مجالسنا، فالذين كان الشيخ يسكتهم فوراً في مجالس العلم - عندما كان الشيخ العودة صبياً - أصبحت لديهم الآن في هوافتهم الذكية منابر، وخلفهم قطع يصفق ويرفع شعارات الإسقاط لكل من لا يروق لهم.

ظن الجيل أن التغريد سلاحٌ يغير العالم، وأنهم أسقطوا به طاغيتين في تونس ومصر بثلاثة أسابيع، وأنهم سيُسقطون به أيضاً "تراث الانحطاط" في غمرة عين. ومع أن خيوط المؤامرة تكشفت في الثورات المضادة فما زال الاعتراف بالخدع صعباً، وما دام التغريد هو "السلاح" الوحيد الذي كان ولا يزال متاحاً فسيبقى هو الملاذ الوحيد، وطالما ظل المشايخ هم الطرف الأضعف فلتتجه إليهم إذن فوهات الأسلحة الزائفـة.

اتسع الخرق على الرافع، وسقطت هيبة الحق في بئر العدمية، وحُمِّلت مسؤولية الفشل الجماعي على أولئك "الدراويش"، وقدم المنطق قرياناً على مذبح الفوضى.

أصبحت الفضيلة رذيلة، بل أصبح الهروب أم الفضائل، وبات الغريق في قوارب اللجوء إلى بلاد الفرنجة "سيد الشهداء"، وأقطاب المؤامرة الحاكمون باسم الديمقراطية في "الفردوس" الأوروبي هم "خلفاء الله في أرضه".

أليس طبيعياً إذن أن تسأل إحداهم صديقاتها: ألم تخلعن الحجاب بعد؟ وأن يعلن أحدهم بين أصحابه أنه وجد ضالته في "الإلهاد"، وأن يُلام "المشايخ" مجدداً: لماذا لا تنقدون هؤلاء؟ وأن يصبح الانشغال بالكشف عن أصابع اليهود في كل ثورات العصر الحديث مؤسراً على "حرف" الباحث الرصين.

### أين هو الحل؟

في كل مرة تقريباً أصف فيها هذه الأمراض المزمنة يتكرر التعليق الاستنكاري على الفور: "حسناً لقد فهمنا، أين هو الحل؟" ولا يمكن فهم هذا السياق الاحتاجي إلا من وجهة نظر "أصول الفقه الفيسبوكية"، والتي تنص على أن كل من لا يملك الحل لا يحق له طرح المشكلة، وعليه أن يجلس بجانب الفاشلين ويلتزم الصمت.

حسناً، قل لي بالله عليك، ما الذي يمنعك من الانسلاخ عن تلك الجماهير والتوقف لحظة للتأمل، ومن أن تغلق التلفاز والفيسبوك وتويتر وتعزل المقاهي وجلسات الجدل ليلة واحدة فقط، ثم تفك بعقلك المجرد عن الهوى؛ وأن تستحضر الاقتراح القرآني للمشركين في إتاحة الفرصة لعقولهم بالنظر مرة واحدة بعيداً عن تأثير المحيط: {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثني وفرادي ثم تتفكروا ما بصادبكم من جنة}.

ولتسأل نفسك حينئذ: هل هناك مانع عقلي وفيزيائي وتاريخي من التصديق بحكمة العدو لكل هذه اللعبة؟

ألا يمكننا استعادة رشدنا الذاتي ما دام الوحي الإلهي مطبوعاً في مصاحف ومكتوباً بلغتنا؟ ألا نستطيع التفكير مجدداً في الواقع دون السقوط المزمن في المغالطات المنطقية؟ هل نحن مضطرون للاستماع إلى الجدل المشحون بكل الأمراض النفسية على موقع التواصل؟

حتى إن كان المحيط عاجزاً ومُحبطاً، فالحساب في الآخرة سيكون فردياً، وسيركز على نوائينا وأفعالنا وليس على النتائج الخارجية عن إرادتنا. فهل أخلصنا النية؟ وهل قام كل منا بدوره الفردي البسيط؛ حتى وهو يعلم أن الجماهير تتجه نحو الهاوية؟ وهل حاولنا إصلاح أنفسنا وتذكير الدائرة الضيقة التي حولنا بواجبها الفردي لإبراء الذمة؛ حتى ونحن نسقط معها في الهاوية؟

وإن لم نفعل، فهل اعتزلنا الجماهير المندفعة نحو الهاوية على الأقل؟ وهل حفظنا ألسنتنا وأقلامنا عن مشاركتهم في السقوط ولو بالكلام؟

هناك أبطال مخلصون "يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله، لا يضرهم خذلان من خذلهم"، ومعهم صالحون مرابطون لا يتربكون ببيوتهم وأرضهم للمحتل الإيراني/ الإسرائيلي، وبينهم دعاة صادقون يحتكمون إلى الشرع ولو خالف هوى الجماهير الفاقدة للوعي.

النصر يكون للأمة كلها، فلا يتحقق ما لم تستحق أغليتها تلك الجائزة. فإن لم تجد أمتك أهلاً لذلك فعليك بخاصة نفسك، وليس ذلك بالانسحاب والقنوط، بل بإصلاح نفسك التي تُحاسب عليها، وإصلاح ما أمكن حتى لو تيقنت بأن جهودك لن يغير في الأمة شيئاً. فمن كانت في يده فسيلة وقامت عليه القيامة فليغرسها، حتى لو علم أنها لن تثمر في هذه الدنيا، فإنها ستثمر حتماً في صحيفتها، وقد يُحاسب إن لم يفعل.

من لم يستطع أن يبني أمته بهذه الثورات فليحرض على ألا يجعلها معلولاً للهدم، ومن لم تُظهر هذه الثورات أجمل ما لديه، فليعمل على ألا تمسكه إلى كائن غريزي بدائي متواحش، وذلك أضعف الإيمان.

أعطني حلاً عملياً!

تغبير النفس هو حل عملٍ وليس نظريًّا بالطبع، ولكن إن كنت ترى في نفسك قدرة أكبر على التغيير فاقرأً أو لا كتب منير العخش عن الأساطير التوراتية التي أسسست وما زالت تحرك القوة العظمى في العالم (الولايات المتحدة)، ثم كتاب "من أجل صهيون" لفؤاد شعبان.

وهما أكاديميان علمانيان عملاً في أمريكا نفسها، وليسوا من أمثالـي "المهووسين" بنظرية المؤامرة وعودة المهدى في آخر الزمان!

وعندما تكتشف أن الغرب يتحرك بداعـف أيديولوجـية تسعى لاستئصالـنا بنبوـات توراتـية حتمـية، وأن الصراعـات التقليـدية التي لا يرىـ الإعلـام سواها على السـاحة الجـيوسيـاسـية هي إجرـاءات مـرـحلـية؛ أـعـدـ التـفـكـيرـ فيما نـفـعـلـهـ وفيـما يـرـادـ مـنـاـ وـمـاـ نـنـتـظـرـهـ مـمـنـ يـمـلـكـ القرـارـ السـيـاسـيـ والـقـوـةـ العـسـكـرـيـ وـوـسـائـلـ التـأـثـيرـ.

أـعـترـفـ لكـ بـأنـ بـعـضـ زـمـلـائـيـ الـبـاحـثـيـنـ فـيـ هـذـاـ المـجـالـ اـعـزـلـواـ يـائـسـينـ مـحـيـطـهـمـ الـذـيـ وـصـفـتـهـ لـكـ أـعـلـاهـ وـاـكـنـفـواـ بـتـأـلـيفـ كـتابـ يـطـرـحـونـهـ كـلـ عـامـ لـلـأـجيـالـ الـقادـمةـ.

وـسـأـكـشـفـ لـكـ عـنـ سـرـ المـفـكـرـ الـراـحـلـ مـالـكـ بـنـ نـبـيـ الـذـيـ اـحـتـفـىـ بـهـ جـيـلـاـ الحـادـثـيـ الـمـنـفـحـ بـصـفـتـهـ مـنـظـرـاـ لـلـفـابـلـيـةـ لـلـاستـعـمـارـ وـجـلـ الذـاتـ،ـ حـيـثـ نـشـرـ أـوـصـيـاءـ تـرـاثـهـ مـؤـخـراـ كـتابـ "الـمـسـأـلـةـ الـيـهـوـدـيـةـ"ـ الـذـيـ أـوـصـىـ عـنـ تـأـلـيفـهـ عـامـ 1952ـ مـ بـأـنـ يـنـشـرـ بـعـدـ مـوـتـهـ،ـ وـكـأـنـهـ أـرـادـ أـنـ يـقـولـ لـجـيـلـاـ إـنـ اللـعـبـ أـكـبـرـ مـاـ نـتـوقـعـ وـإـنـ الـحـلـ يـكـمـنـ فـيـ إـصـلـاحـ أـنـفـسـنـاـ أـوـلـاـ،ـ ثـمـ اـكـتـشـافـ هـوـلـ الـمـؤـامـرـةـ،ـ غـيـرـ أـنـنـاـ لـمـ نـصـلـحـ أـنـفـسـنـاـ بـعـدـ وـلـاـ نـرـيـدـ أـنـ نـصـدـقـ مـاـ وـصـلـ إـلـيـهـ الـعـدـوـ مـنـ خـبـثـ.

أـبـوـ حـامـدـ الغـزـالـيـ وـعـبـدـ الـقـادـرـ الـجـيـلـانـيـ اـشـتـغـلـاـ عـلـىـ تـأـسـيـسـ جـيـلـ جـدـيدـ يـعـيـدـ إـحـيـاءـ الـأـمـةـ الـمـنـهـارـةـ،ـ ثـمـ جـاءـ صـلـاحـ الـدـيـنـ الـأـيـوبـيـ بـعـدـ نـحـوـ قـرـنـ ليـقطـفـ ثـمـارـ تـلـكـ التـرـبـيـةـ وـيـحرـرـ الـقـدـسـ.

حاـولـتـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـاـنـ أـنـ أـوـصـلـ الرـسـالـةـ إـلـىـ صـنـاعـ الـقـرـارـ بـيـنـنـاـ،ـ وـلـعـكـ تـعـرـفـ النـتـيـجـةـ.ـ يـمـكـنـكـ أـنـ تـحاـولـ أـيـضاـ،ـ وـأـنـ تـعـملـ عـلـىـ تـأـسـيـسـ الـجـيـلـ الـمـرـتـقـبـ حـسـبـ اـسـتـطـاعـتـكـ.

أـمـاـ عـنـ الـحـلـ الـمـرـحـلـيـ،ـ فـلـأـعـلـمـ إـنـ كـانـتـ قـدـرـاتـنـاـ الـبـحـثـيـةـ الـقـاـصـرـةـ قـادـرـةـ عـلـىـ إـيـجادـ خـيـارـ أـفـضـلـ مـنـ الـاستـمـارـ عـلـىـ مـاـ هـوـ عـلـيـهـ الـحـالـ فـيـ جـبـهـاتـ الـقـتـالـ ضـدـ إـيـرـانـ وـإـسـرـائـيلـ،ـ فـنـحـنـ لـاـ نـمـلـكـ مـرـاكـزـ بـحـثـيـةـ وـلـاـ أـنـشـطـةـ اـسـتـخـبـارـاتـيـةـ،ـ وـجـهـدـنـاـ يـقـتـصـرـ حـتـىـ الـآنـ عـلـىـ "الـتـنـظـيرـ"ـ مـنـ دـاـخـلـ الـعـرـفـ الـمـكـيـفـةـ الـآـمـنـةـ،ـ كـمـاـ هـوـ حـالـ كـاتـبـ هـذـاـ الـمـقـاـلـ.

وـإـنـ لـمـ تـسـتـطـعـ إـيـصالـ الرـسـالـةـ إـلـىـ صـنـاعـ الـقـرـارـ،ـ وـلـاـ مـسـاـهـمـةـ فـيـ تـأـسـيـسـ جـيـلـ النـصـرـ،ـ وـلـاـ إـعـدـادـ تـقـرـيرـ اـسـتـراتـيـجيـ -ـ اـسـتـخـبـارـاتـيـ يـسـتـشـرـفـ الـمـسـتـقـبـلـ،ـ وـيـكـشـفـ كـوـالـيـسـ الـغـرـبـ وـطـهـرـانـ،ـ وـيـحدـدـ مـاـ يـجـبـ فـعـلـهـ لـكـتـائـبـ الـثـوـارـ فـيـ سـوـرـيـاـ وـالـعـرـاقـ وـلـيـبـيـاـ وـغـزـةـ،ـ وـلـلـمـتـظـاهـرـيـنـ عـلـىـ أـنـقـاضـ مـيـدانـ رـابـعـةـ؛ـ فـأـرـجـوـ عـلـىـ الـأـقـلـ أـلـاـ تـرـكـ مـكـانـكـ للـعـدـوـ وـتـهـاجـرـ إـلـىـ أـورـوباـ،ـ وـذـلـكـ أـضـعـفـ إـيمـانـ.

وـالـلـهـ أـعـلـمـ.

المصادر: